



باحث في تراثه ينفي فرية انضمامه للماسونية..

خليفة لاغة: الأمير عبدالقادر الجزائري تعرض لحملة تشويه مسعورة من قوى الاستعمار

تعرضت حياة الأمير عبدالقادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورائد المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي بين (١٨٣٢ - ١٨٤٧م) إلى الكثير من التشويه الذي طال حياته الشخصية والسياسية والعسكرية، الأمر الذي جعله محل انتقاد من طرف المؤرخين والكُتّاب، وموضع تشكيك في مصداقيته كمؤسس دولة وقائد جيش لدى الرأي العام، خاصة عندما نسب إليه كتاب «المواقف» الذي يزخر بالخزعبلات الصوفية، وما أشيع حول انتسابه إلى أوكار الماسونية واستسلامه أمام الاستعمار الفرنسي.



خليفة لاغة

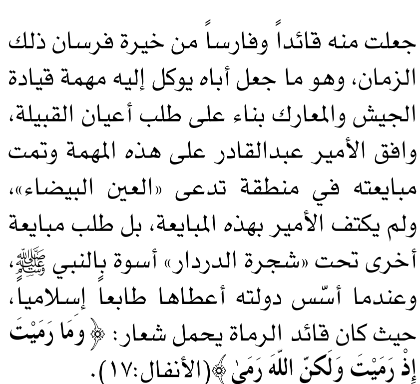
الجزائر: سمية سعادة

«المجتمع» أثارت مع الأستاذ «خليفة لاغة» وهو من أبرز الباحثين في تراث الأمير عبدالقادر في الجزائر وصاحب أول موقع إلكتروني يضم تراث الأمير، أهم النقاط التي يدور حولها الجدل. فإلى تفاصيل الحوار في السطور التالية:

تهمة الماسونية

● بعض المؤرخين والكتاب العرب اتهموا الأمير عبدالقادر بالانتساب إلى أوكار الماسونية، ومما قاله «جورجي زيدان»: إن «الماسونية دخلت دمشق بمساعي الأمير»، ونسبوا إليه أقوالاً تدل على ذلك، بينما نفى كتاب ومؤرخون آخرون هذه التهمة، أين الحقيقة من كل هذا؟

قبل أن أجيب على هذا السؤال لابد أن أعطي لمحة عن طفولة الأمير وهي من شأنها أن تنفي عنه هذه التهمة، حيث إنه نشأ في محيط ديني علمي وثقافي، وكان موضع اهتمام وعناية كبيرة من طرف والده الذي مال إليه ميلاً خاصاً، فأحاطه برأفته وحنانه المميزين، وحاول أن ينشئه نشأة تؤهله لتحمل مسؤولية قيادة الأسرة بعد وفاته، فكان لا يسمح لأحد غيره أن يقوم بالعناية به، كما أن حفظه للقرآن الكريم وتعلمه أصول الفقه في زاوية أبيه بالقيطنة بـ «معسكر» (ولاية في الغرب الجزائري)، وتنقلاته وأسفاره مع أبيه، واحتكاكه بكبار العلماء والشخصيات آنذاك، كان له الأثر البالغ في تكوين شخصيته، كل هذه الظروف



جعلت منه قائداً وفارساً من خيرة فرسان ذلك الزمان، وهو ما جعل أباه يوكل إليه مهمة قيادة الجيش والمعارك بناء على طلب أعيان القبيلة، وافق الأمير عبدالقادر على هذه المهمة وتمت مبايعته في منطقة تدعى «العين البيضاء»، ولم يكتف الأمير بهذه المبايعة، بل طلب مبايعة أخرى تحت «شجرة الدردار» أسوة بالنبي ﷺ، وعندما أسّس دولته أعطاها طابعاً إسلامياً، حيث كان قائد الرماة يحمل شعار: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾(الأنفال:١٧).

فكيف يمكن لهذا الرجل أن يترك خلفه هذا التاريخ المضيء وينخرط في أحد أوكار الماسونية كما يزعم البعض؟!

مؤامرة

● هل تعتقد أن هناك مؤامرة على الأمير بتشويه صورته؟

بالتأكيد، وكان «تشرشل» وزير المستعمرات البريطاني السابق هو أول من ادّعى أن الأمير انخرط في أوكار الماسونية في كتابه حول حياة الأمير عبدالقادر من دون أن يقدم أي دليل سوى رغبته في خدمة محافل الجمعية الماسونية في الجزائر، ولم تقتصر جهود «الماسونيين» على كلام محرف من «تشرشل»، بل عمدوا إلى تزوير رسائل نسبوها إلى الأمير، وادعوا أنها بخط يده، ولكن خبراء الخطوط أثبتوا بطرق



من مجازر الاحتلال الفرنسي للجزائر

علمية أن هذه الرسائل لم تكتب بخط الأمير، وأن الأسلوب ليس أسلوبه، وسبق للأميرة «بديعة» حفيدة الأمير أن أكدت أن جدها لم ينتسب في حياته إلى أوكار الماسونية.

مخططات غربية

● لماذا حاول «تشرشل» تلفيق تهمة الماسونية للأمير، والمعروف أن بريطانيا لم تبسط يدها على الجزائر؟

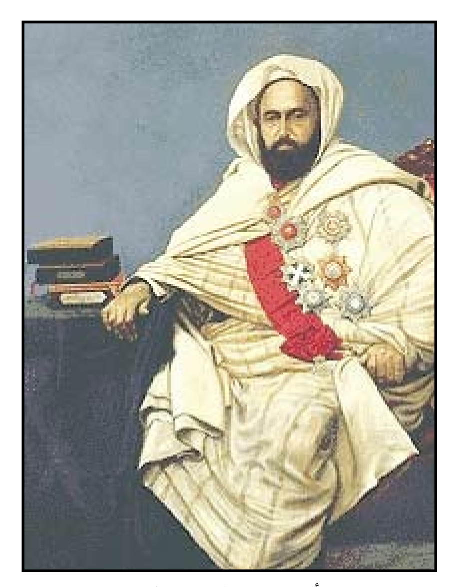
يجب أن نعلم بأنه قد أُنشئت في الدول الكبرى كالاتحاد السوفييتي سابقاً والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا هيئات رسمية هدفها: غسل الأدمغة، وتشويه الحقيقة، وإعادة كتابة التاريخ وفق ما يناسب توجهاتها السياسية والثقافية، ومما قاله أحد المؤسسين لهذه الفكرة: «الخطوة الأولى في تصْفيَة شعب ما هي أن تمسح ذاكرته، دمّر كُتُبَه، وثقافَتَهُ، وتاريخه، ثم اجعل شخصاً ما يكتبُ كتُباً جديدة، واصنع ثقافة جديدة، واختر أفكاراً جديدة تمحو بها تلك الأفكار»، وهذا ما كان يمهد له «تشرشل»، شيء آخر مهم أيضاً وهو أن كل المصادر التي كتبت عن حياة الأمير هي مصادر غربية وأصلها فرنسي؛ لذلك فهي تحمل مغالطات مدسوسة بعناية بالغة، إمعاناً في تلويث سمعة الأمير، وليس غريباً أن يصدر هذا التشويه عن «تشرشل» فملة الكفر واحدة.

تهمة المسيحية

● ادعت فرنسا أن الأمير عبدالقادر كان مسيحياً، على أي أساس استندت إلى هذه الفكرة؟

الإجابة على هذا السؤال تعيدنا حتماً إلى الفتنة التي اندلعت في لبنان سنة ١٨٦٠م، وحصدت أرواح الآلاف، وكادت تقضي للأبد على اللبنانيين وشعوب المنطقة، هذه الفتنة جعلت الأمير يتدخل لإنقاذ أكثر من خمسة عشر ألفاً من النصارى لاذوا إلى منزله، فلم يستطع أحد التعرض لهم احتراماً وتبجيلاً له، وقد تصرف على هذا النحو، التزاماً بتعاليم الدين الإسلامي الذي يأمر المسلمين بحماية أهل الذمة الذين يقطنون في بلاد المسلمين، فالأمير عبدالقادر لم يكن قائداً عظيماً ولا سياسياً محنكاً فحسب، بل كان عالم دين بكل ما تحمله الكلمة كما سبق وأشرت في بداية الحوار، ولقد اتخذ حينها إجراءات كبيرة وجريئة لوأد الفتنة، حتى أنه أخذ مفاتيح قلعة دمشق ليأوي فيها كافة نصارى البلد، يقدم لهم الطعام والشراب على حسابه الخاص لمدة خمسة عشر يوماً،

التكالب على شخصية الأمير استهدف تشويه صورته التي سطعت بفضل أعماله الجليلة حتى لا يكون المثل الأعلى لشباب الجزائر



الأمير عبدالقادر الجزائري

وكان لذلك دور كبير في وقف الفتنة وإطفاء نارها، حينها عاد عشرة آلاف جندي فرنسي إلى بلدهم بعد أن كانوا في مراكبهم يستعدون لنسف بيروت بالقنابل المدمرة، وهكذا استطاع الأمير حقن دماء البشر، ووضع اتفاقية لا تزال سارية المفعول حتى يومنا هذا.

ذريعة الاحتلال

● هل اتخذت فرنسا قضية اضطهاد المسيحيين ذريعة لاحتلال بلاد الشام؟

نعم، وبالعودة إلى ما كتبه المؤرخون نرى أن الدول الأوروبيّة الصليبيّة أوجدَت هذه الفتنة لتكون ذريعةً لها في احتلالها لبلاد الشام وفصلها عن الدولة العثمانية، ولم تكد تلك الفتنة تبدأ حتى رأينا القادة والملوك الغربيين يطالبون الدولة العثمانية بحماية المسيحيين وإلاّ سيتدخلون بجيوشهم لحماية إخوانهم في

دون أي دليل.. «تشرشل» أول من ادعى انخراط الأمير في أوكار الماسونية خدمةً لجمعيتهم في الجزائر

الدين كما كانوا يزعمون، وما هي إلاّ أيام حتى رأى الناس الأسطول الفرنسي يرسو في ميناء بيروت ويُنزل قواته الغازية! وهذا أكبر دليل على النية المبيّتة والتخطيط المسبق لهذا الغزو، وما قضية المسيحيين إلاّ ذريعة.

ومن الأدلّة على ضلوع فرنسا في الفتنة، هي أنّ الأمير عبدالقادر أثناء قيامه بإخماد نار الفتنة والسيطرة على الأوضاع ومطاردة الغوغائيين الذين هجموا على «حي العمارة» حيث دارُ الأمير التي يحتمي بها بعض النصارى، ألقى رجالُه القبضَ على بعض المهاجمين، فإذا فيهم عدد من المسيحيين اللبنانيين! نعم، نصارى لبنانيون متنكرون بلباس المسلمين يقومون بالإجهاز على النصارى في دمشق لماذا؟ لكي يمنحوا فرنسا ذريعة لاحتلال البلاد بحجة الدفاع عن النصارى!

إخماد الفتنة

● كيف استطاع الأمير عبدالقادر إخماد هذه الفتنة؟

لما بلغ الأمير أن قائد الحملة الفرنسية الجنرال «بوفور» يريد قصف دمشق من الصالحيّة تمهيداً لدخول دمشق، بعث له برسالة يطلب منه أن يوافيه إلى البقاع، وتوجّه الأمير ليلاً ومعه بعض أتباعه إلى معسكر الجيش الفرنسي واجتمع بالجنرال وأظهرَ له سوء عاقبة ما اعتمد عليه، فأصرَّ الجنرال على قصف دمشق ودخولها، فهدَّدهُ الأمير وقال له: إنّهم إذا قصفوا دمشق أو حاولوا دخولها فإن العهود التي بينه وبين دولة فرنسا تصبح لاغية، وأنه سيكون أوّل المدافعين والمقاومين لأية حملة فرنسية تهاجم البلاد، وسيعود للجزائر ويباشر الجهاد هناك من جديد! فعندها عدلت فرنسا عن قصدها ورجعت الجيوش الفرنسية إلى بلادها خائبة، وهكذا استطاع الأمير عبدالقادر بحنكته، وبُعْد نظره، والتزامه الكبير بالمسؤولية وبأوامر الشريعة الإسلامية، أن يحافظ على تماسك الدولة العثمانية، وإبطال المخطط الأوروبي لاقتطاع بلاد الشام من الدولة العثمانية، ومنع جيوش فرنسا من دخول الشام ويردّها على أعقابها خائبة.

وعليه، ومما سبق نلاحظ أن التكالب على شخصية الأمير لها أبعاد تاريخية وأحقاد دفينة، لذا لفقت له تلك التهم الباطلة والغاية منها التشكيك في هذه الشخصية وتشويه تلك الصورة التي سطعت بفضل أعماله الجليلة حتى لا يكون المثل الأعلى الذي يقتدي به شباب الجزائر.■